الجزويتية والطرائق الاسلامية

ما زال الجزويت منذ نشأت جمعيتهم موضع حيرةٍ لافكار ذوي الالباب ومثاراً للريب في نفوس ارباب السياسة ومبعثاً للقلق بين اصحاب الاديان ومرمًى للسخط من جانب اولي الرئاسة والسلطان وقد تجرّد كثيرون من اكابر علماء اوربا ودُهاتها للكشف عن كُنه هذه الجمعية وسرّ نشأتها والغاية التي تجري اليها فتفرّقوا في امرها طرائق واحزاباً وقد تشكلت لهم مناظرها وتغوّلت اشباحها فتمثَّل فيها لكل ناظرٍ صورة وتخيَّل منها لكل مقلةٍ شبح واصبح القادح فيها والناضح عنها كلاهما راكب عمياء أو خابط ليلةٍ ليلاء . وقد وقفنا في مجلة المجلات الفرنسوية على مقالةٍ للمسيو فكتُور شربُونّيل بحث فيها بحثاً تاريخيًّا استقصى فيه مبدأ هذه الجمعية من اول نشء ظهر منها في سماء التصوُّر الى ان سال سيلها في البلاد فرأينا ان نجعلها طُرفةً لقرّاء الضياء لما فيها من الغرابة وما تضمنتهُ من دقة البحث واهميته مما يتشوق كل مطالع الى الوقوف عليهِ وهذا ملخص ما جاء في تلك المقالة نوردهُ بتصرفٍ قليل

وُلد اغناطيوس لوَيُّولا زعيم الجزويت وواضع طريقتهم سنة ١٤٩١ وكان مولدهُ في القصر المعروف بقصر لويولا وهو قصرٌ قديم في بسكايا من بلاد اسپانيا واليهِ نسبتهُ . ودخل في اول امرهِ في الجندية فجُرح في احدى المواقع الحربية سنة ١٥٢١ في حصار مدينة پمپلُون فنقِل الى لويولا واقام هناك الى ان برأ من جرحهِ . واتفق في تلك المدة ان وقع في يدهِ بعض

٤٠٢٩

الكتب الروحية فاكبّ على مطالعتها فنشأ عنده ميلٌ الى الامور الدينية وكان بسبب ذلك الجرح قد اصابهُ عطبٌ في احدى رجليه منعهُ من العود الى خدمة الجندية فنذر على نفسه ان يتجرد بقية حياته لخدمة الدين

ولما تمّ برؤهُ نهض فانطلق الى دير الرهبان البندكتان في الجبل المسمى بمونسرّا فزار هناك كنيسة العذرآء وعلّق فيها خنجرهُ وسيفهُ ثم اعتزل الى مغارةٍ في منريزا وهي مدينةٌ بجبال ذلك الجبل فخلا فيها مدةً قضاها في التوبة والقنوت

وكان في اواخر القرن الخامس عشر واوئل السادس عشر قد بقي في اسپانيا عددٌ كبير من العرب وكانت العامّة من الاسپنيول وطبقة الاصاغر من السراة يودّون اخراجهم من البلاد وبعكسهم طبقة الكبرآء من سراة الدولة فان كثيرين منهم كانوا مصاهرين لهم فضمنوا لهم الامان في البرّ والبحر وكذلك شرلكان كان قد أمنّهم بشرط ان يدينوا لشرائع البلاد التي تحت سلطانه وذلك قبل سنة ١٥٢٤ وهي السنة التي امر فيها باجلآئهم من البلاد بعد عرضهم على ديوان الفحص المشهور

والظاهر ان اغناطيوس كان في اول الامر على رأي من يقول بطرد بقايا العرب فكان اول ما خطر بباله من خدمة الدين التي ارصد لها نفسهُ ان يتجرد لمناصبتهم • واتفق في تضاعيف ذلك انهُ بينا كان مسافراً على بغلةٍ لهُ الى مونسرّا صادف في طريقه واحداً من اشرافهم وتحتهُ ركوبةٌ فاخرة فتسايرا وتحادثا ثم دخلا في غمار المباحث الدينية لان احدهما كان مسيحياً وقد وقف نفسهُ على خدمة الدين والآخر كان من اصحاب احدي الطرائق

الدينية في الاسلام فاحتدم بينهما الجدال حتى تضايق المسلم فيما يقال ففصل عن خصمه ِ وقد تكلم في حق العذرآء بما يقبح سماعهُ . واذ ذاك وقف اغناطيوس وهو يؤامر نفسيه ِ بين ان ينتقم منهُ للعذرآء أو يتركهُ في سبيله ِ ثم نظر فرأى امامهُ طريقين فأجمع رأيهُ على ان يردّ الامر الى مشيئة الله ويترك البغلة تسير على سجيتّها فان اقتفت اثر الرجل ادركهُ واوقع به ِ والاّ وكلهُ الى الغضب الالهي فسارت البغلة في الطريق الآخر فاتخذ ذلك على ما يقول مؤرخو الجزويت دليلاً قاطعاً على ان الله انما اراد ارسالهُ الى العرب ليدعوهم الى الايمان المسيحي ومن ذلك الوقت شعر من نفسه ِ بانهُ رسول

ولما تقرر عندهُ امر هذه الرسالة لزمهُ ولا جرم ان يتقرب من العرب ويخالطهم . قيل وكان الرجل الذي لقيهُ في الطريق يقصد مدينةً بجوار مونسرّا ولم يكن اذ ذاك مدينةٌ في تلك الناحية الا منرّيزا فلا يُستبعَد ان يكون قد صادفهُ فيها مرةً اخرى فعاودا حديثهما واطّلع منهُ على شيء من امر الطريقة التي كان داخلاً فيها كما انهُ لا بد ان يكون قد لقي غيرهُ من العرب المنتشرين في تلك الناحية اذ كان معظم التجارة في ايدي المسلمين واليهود فجالسهم وباحثهم . وعلى كل حال فالذي يؤخذ من مُجمَل اقاويل الرواة ان اغناطيوس شرع في وضع قوانين جمعيته ِ في منرّيزا وانهُ هناك نشأ لهُ اول خاطر ان يُحدِث في حضن الكثلكة جمعيةً يحذو فيها على مثال الطرائق الاسلامية

ثم انهُ في سنة ١٥٢٣ خرج من منرّيزا ورحل الرحلة المشهورة في تاريخ حياته ِ وان كان مؤرخو هذه العصابة يميلون الى كتمانها وهي رحلتهُ الى فلسطين وبيت المقدس اقتدآءً بما يفعل المسلمون في حج مكة وزيارة

قبر النبي فلبث في ارض فلسطين مدة شهرين كان في اثناآئهما يتقرب من المسلمين وطوَّح بنفسهِ حتى في اجتماعات اصحاب الطرائق منهم فاوغر ذلك صدورهم عليهِ حتى اوشك على ما رواهُ هنّين دُكوثيلياي ان يُفاح دمهُ . على ان تلك الغيرة منهُ على الدعوة الى الكثلكة كانت في غير اوانها حتى ان الفرنسيسكان حرّاس قبر المسيح انذروهُ تحت عقاب القطع من شركة الكنيسة ان يقلع عن هذا الامر الذي اثار عليهم حنق اصحاب الطرائق الاسلامية وان يرجع الى اوربا

ولما لم يسعهُ الا الامتثال قام وانقلب راجعاً الى اسپانيا وكان الكردينال اكزيمِيْناس قد انشأ في ألكالا مدرسةً جامعة لتعليم المتنصرين من العرب وترشيح معلمين لدعوة من لم يتنصر منهم فدخل في تلك المدرسة . ولما كان رجال الفحص المقدَّس متيقظين لامر رسالتهِ خامرهم ريبٌ في صحة عقيدتهِ وطلبوا حبسهُ فسُجِن اياماً في مُطبَق[1] التفتيش ثم أُطلِق فارتحل الى سَلَمَنْك غير انهُ لم يزل مواظباً على مخالطة العرب فعاد الريب من جهتهِ وسُجِن مرةً اخرى بامر الفاحصين وبعد ان لبث في سجنهِ اثنين وعشرين يوماً أُطلِق سبيلهُ بوسيلةٍ لم يُدرَ ما هي فلم يسعهُ المُقام بعد ذلك في ارض التفتيش فخرج من اسبانيا ولحق بباريز فاقام بمونمارتر وهناك شرع في تأسيس الجمعية

وقد تقدم ان الرجل الذي صحب اغناطيوس في الطريق كان من اصحاب احدى الطرائق الدينية وان اغناطيوس حين كان في فلسطين حاول الدخول في الجمعيات الاسلامية . وقد كانت هذه الجمعيات كثيرةً في القرن

(١) سجن مظلم تحت الارض

الخامس عشر والسادس عشر وكثيرٌ منها باقٍ الى هذا العهد نذكر منها ما لهُ علاقةٌ بغرضنا. فمنها الطريقة القادرية وكانت نشأتها في آسيا الصغرى في القرن الثاني عشر وزعيمها سيدي عبد القادر وبهِ سُمّيت ثم دخلت بلاد اسبانيا فانتشرت فيها انتشاراً عظيماً ولكن بعد فتح غرناطة خرج اكثر اصحابها الى مرّاكش وبقي افرادٌ منها متفرقون في الجزيرة الى ان تعقبهم ديوان التفتيش بأمر شرلكان سنة ١٥٢٤

ومنهم الشاذلية وزعيم هذه الفرقة سيدي ابو مدين من اهل اشبيلية المولود سنة ١١٢٦ وكان من المدرّسين في مدرستي اشبيلية وقُرطبة وسُمّي اتباعهُ بالشاذلية نسبةً الى ابي الحسن الشاذلي ثالث مشايخهم وهو رجلٌ عظيم الحرمة في الاسلام على العموم . وانتشرت هذه الطريقة في عامة اسبانيا وشمالي افريقيا وكان اصحابها فِرَقاً منها المندانية والرحمانية والخَلْوَتية نسبةً الى الخلوة لانهم يوجبون الخلوة على الداخل في طريقة الشاذلية على ما سيجيء. وكان منشأهم في القرن الرابع عشر. واصحاب هذه الطرائق كلها من الصوفية أو الاخوان يجمعها قانون واحد يسمونهُ بالوِرد وارادتهم منوطة بشيخ يتسلط على جميعهم وبمقدّمين هم الموكلون بالزوايا وهي شبيهة بالاديار عند النصارى

اذا عُلم ذلك بقي ان نثبت ان اغناطيوس كانت له خُلطة بعرب اسبانيا واصحاب الطرائق الاسلامية وانهُ اقتبس من قوانينهم وشعائرهم لسنّ قانون جمعيتهِ . ولست اجهل ان محاولة اثبات مثل هذه الدعوى مما يدعو الى الاستغراب وقد تكلف مثل ذلك في القرن السابع عشر والثامن عشر اناسٌ

من خصوم الجزويت فاخطأوا وجه الحجة لانهم لم يكونوا يعرفون من اصحاب الطرائق الاسلامية الا طائفة الحشاشين واتباع شيخ الجبل فزعموا انهم انما اخذوا عنهم مع ان الحشاشين كانوا قد انقرضوا من قبل وجود الجزويت بنحو قرنين من الزمن فضلاً عن انهم كانوا اناساً معروفين بالنهب وسفك الدماء ولذلك ردّ عليهم المنصفون من علماء التاريخ وابطلوا مزاعمهم.

ولست انكر من جهةٍ اخرى انهُ ليس عندنا نصٌّ صريح على ان اغناطيوس اقتبس تعاليمهُ من الطرائق الاسلامية لانهُ لم يعترف بذلك او لأن الجزويت الاولين الذين طالما سدلوا على تاريخ نشأتهم حجباً من اللبس والتزوير طمسوا هذه الحقيقة. على انهُ لا يزال الى اليوم هؤلاء الآباء يحاولون ان يضعفوا الأدلة التاريخية التي تظهر من خلال البحث ويزعمون انهُ اذا امكن ان يثبت وجود شيء من الآثار الاخوانية الاسلامية في قوانين الجزويت فمنشأهُ ان الجمعيات الاسلامية كانت تستمدّ احياناً من قوانين الرهبانيات المسيحية وعليهِ فما يوجد من المشابهة بين الاخوانية والجزويتية انما هو مجرّد اتفاق ونزوعٍ الى القواعد الرهبانية القديمة بدون ان يكون احد الفريقين مقتبساً عن الآخر

لكن لا بد لنا هنا من التنبيه الى ان الجزويت يخالفون سائر الرهبانيات المسيحية وان لجمعيتهم طبيعةً خاصة تنفرد بها عن طبيعة الكنيسة الكاثوليكية وما انفردوا بهِ من ذلك هو الذي اخذوهُ عن الطرائق الاسلامية ولا سيما القادرية منها والشاذلية. وبالتالي فاذا كانت الجزويتية تشبه في ظاهرها سائر الرهبانيات الكبرى في النصرانية لان اغناطيوس استمدّ قوانينها من

كتاب سِسُنْرُوس البندكتاني مدة اقامته بدير منْريز فان لهذه الجمعية نظاماً وتعليماً خاصين بها هما اللذان يتعرف بهما معنى الجزويتية . ولاثبات ذلك لا بأس ان نقابل بين كلٍّ من الرهبانيات المسيحية والطرائق الاسلامية وجمعية الجزويت في اربعة امور وهي اولاً طريقة الابتدآء وثانياً النظام الداخلي وثالثاً مقام السلطة ورابعاً روح كلٍّ من هذه الجمعيات وغرضها وسنفرد لكلٍّ من هذه المعاني بحثاً برأسه (ستأتي البقية)

زنجبار

بقلم حضرة الكاتب ديمتري افندي نقولا صاحب مجلة الفكاهة

عن كتاب لهُ تحت الطبع

(تابع لما قبل)

واما عوائدهم في المآتم فاذا توفي شخصٌ خرجت خادماتهُ للحال وكل واحدة منهنَّ قد عصبت جبهتها بخرقةٍ سودآء وشبكت عشر اصابعها على رأسها وهي تولول وتنوح وتصيح واسيّداه وايتماه ويذهبنَ كذا صارخات من بيت الى بيت من معارف الميت ويطفنَ البلدة كلها وربما صحبتهنَّ خادمات اخر من البيوت التي يمررنَ بها ويزعجنَ النائمين من السكان لانهُ حالما يموت الشخص ولو نصف الليل تخرج الناعيات على مثل ما ذُكر فلا تمرّ ساعة حتى يغصّ البيت بالوافدات من جميع الطبقات ويستمرّ النواح والعويل وينقطع احياناً مدة الليل الى الصباح . وفي هذه الاثناء يحتشد معارف الميت في جانبٍ من المنزل وفي الجانب الآخر المغسلون يغسلون الميت ويسير الخدام لحفر الضريح . وفي وقت غسل الميت وتجهيزهِ تسكت الباكيات

وفي اثناء هذا السكوت يكون في يد كلّ منهنّ قطعةٌ من القطن الذي يجهز به الميت تشتغل بنفشها وهنَّ يهللنَ ويكبّرنَ الى ان ينتهي الغسل . ومتى تم ذلك يؤتى بالجنازة ويوضع الميت فيها فيسمع الحاضرون عند خروجها من الصراخ والعويل ما لا يقدر القلم على وصفهِ وترى من النسآء من تهمّ ان ترمي بنفسها من طاق البيت فتمسكها التي بجانبها

وحال خروج الجنازة الى المقبرة تخرج جميع الخادمات من البيت بالعويل (وكل واحدةٍ معصبة جبهتها بخرقةٍ سودآء كما سبق وهو شعار الحزن بحيث انها اذا مرّت في اي قسمٍ من البلد يُعرَف ان احد سادتها قد مات) ويجتمعنَ حول واحدةٍ منهنَّ تحمل على رأسها طستاً فيهِ ثياب الميت التي مات فيها وهي متوكئة على اكتاف الخادمات (لانها لا تستطيع ان تمشي وحدها من الحزن) وهكذا ينطلقنَ مئاتٍ الى ساحل البحر خارج زنجبار فيغسلنَ تلك الثياب ثم يرجعنَ مهللات وهذه العادة جارية عند الجميع ولكن لا يُعرَف ما اصلها

اما الخارجون بالجنازة فان كانوا من الاباضية فجنازتهم يحملها خدامهم او البياسر [1] وهم الذين يتولون غسل الميت ودفنهُ والدفن عند هذه الطائفة يجب ان يكون حالما يموت الشخص منهم لان ابقآء شخصٍ في البيت بعد

(١) هم خدام بيض الالوان لا يتميزون من العرب واحدهم بيسر واصلهم من عمان الا انهم فاسدو النسب ولكل قبيلةٍ من عرب عمان عدد عظيم من البياسر كانوا يتخذونهم خداماً منذ صغرهم ثم تزوج بعضهم من بعض فكثروا حتى اصبحوا قبائل كثيرة كالعبيدانية والشبينية والخصيبية والبعض منهم اذا وضع امضآءهُ يكتب مثلاً فلان بن فلان خادم بني رواحه او خادم آل بو سعيده وما اشبه ذلك

موته حرام . وعندهم لا يجوز الترحم على ميتهم ابداً الا اذا كان اماماً (وفي هذا الزمان لا يوجد بينهم امام) لان في اعتقادهم ان الانسان اذا مات وعليهِ بعض الذنب ودخل النار فلن يخرج منها ابداً . وبعد الدفن يقام العزآء او المأتم فيجتمع الرجال في احد المساجد والنسآء في منزل الميت وعند دخول المعزّي لتعزية ولد الميت او نسيبهِ في المسجد يقدَّم لهُ صحن حلوى ومنشفة فيتناول لقمةً واحدة وينشف اصابعهُ ثم يُسقَى فنجان قهوة وبعد ذلك يخرج . وفي اليوم الثاني تُكتَب رقاع الدعوة الى المعارف والاصحاب فيحضرون صباح اليوم الثالث في نفس المسجد ويأكلون الطعام المصنوع ذلك اليوم وينصرفون . والعزآء في جميع زنجبار يستمرّ ثلاثة ايام فقط

اما النسآء ومأتمهنَّ في منزل الميت فيلبثنَ فيهِ تلك الايام الثلاثة يقلقنَ الجيران بكثرة النواح واصوات العويل فلا يرجعنَ الى بيوتهنَّ الا بعد انقضآء هذه المدَّة . وهي من العوائد الرديئة لما يحدث عنها احياناً من الفساد لغياب كل امرأةٍ عن منزلهـا مدة ثلاثة ايام بلياليها وهي مطلقة العنان فضلاً عما يحدث من مثل ذلك بين الخدام والخادمات المتجمعين في ذلك البيت بلا مناقش ولا رقيب . وينتهي المأتم عند غروب اليوم الثالث واذ ذاك يتفرقنَ فتعود كل امرأةٍ منهنَّ الى منزلها . انتهى

الابرة

من نظر الى الابرة ورأى ما هي عليهِ من بساطة الصنعة وصغر الحجم ورخص الثمن توهم انها من اسهل المصنوعات عملاً واقلها اقتضآء لاختلاف

الايدي ولكن من استقرى طريقة صنعها وجد انها لا تبلغ تمامها حتى تمرّ بين ايدي عددٍ من العمال لا ينقص عن مئة وعشرين عاملاً وسنذكر بيان ذلك بما يسعهُ هذا الموضع من التفصيل

اما اختراع الابرة فلا يُعلَم زمنهُ بالتحقيق ولكنها بالضرورة وُجدت من اول ازمنة الحضارة الاان المادّة التي تُتَّخذ منها اختلفت تبعاً للعصور وموضع الصناعة من الاتقان . وكانت قديماً تتخذ من شظايا العظام كما يُرى ذلك في الآثار الباقية عن الاوَّلين ثم صارت تُصنَع من الحديد الأنيث ثم من الحديد الذكر اي الفولاذ او الصلب وهو ما هي عليهِ الآن

وكانت الابر المعدنية تُصنَع اولاً على السندان ضرباً بالمطرقة كما يُصنَع بعض المسامير اليوم ثم يتمم صنعها بالمبرد والمسنّ ولم يُصطلَح على اتخاذ الابر من الاسلاك الا منذ عهدٍ قريب لعلهُ لا يكون قبل القرن الرابع عشر . والظاهر انها اول ما صُنعت في مدينة نورَمبرْغ من باقاريا وقد كان فيها سنة ١٣٧٠ عدة معامل لهذه الصناعة ومنها انتشرت في سائر مدن المانيا وانتشرت بعد ذلك شيئاً فشيئاً في بلاد القاع (Pays-Bas) وفرنسا وانكلترا وغيرها

ويقال ان صناعة الابر وُجدت في لندرا سنة ١٥٤٣ او ١٥٤٥ كان يتعاطاها رجلٌ هندي وقيل انهُ لم يبح بسرّها لاحد فلما مات ماتت معهُ فأخذ يزاولها رجلٌ يسمى خرستوف غرينَنغ حتى استقامت لهُ سنة ١٥٦٠ . وقد اشتهرت الابر الانكليزية من اوائل القرن السابع عشر وهو الزمن الذي عمدوا فيهِ الى استبدال الحديد بالفولاذ حتى كان اكثر الابر المستعملة في

الارض من المعامل الانكليزية وهي لا تزال كذلك الى اليوم وان زعم بعضهم ان الصناعة الالمانية ستتغلب عليها

والمادّة المستعملة في الابر اليوم تتخذ غالباً من اسلاك وستفاليا من بلاد المانيا وهي تؤخذ بهيئة لفائف مستديرة على شكل حلقة فتُحلّ هذه الحلقة وتقوَّم ثم تُقطع حزَماً بطول ابرتين وتجري الصنعة من اولها الى آخرها على هذه القطَع المزدوجة وتكون كل ابرتين متصلتين من ناحية الرأسين اي من الجهة التي فيها الثقب فلا تُفصلان الا في آخر العمل

اما كيفية صنعها فاولاً يحرَّر تقويمها بان تُحمَى الى درجة الحمرة ثم تُمَرّ بين اساطين تدور بعضها على بعض فيزول منها كل انحناء ثم يؤخذ في تحديد اطرافها فتحدَّد اولاً من الطرف الواحد ثم من الطرف الآخر ولهذا التحديد آلةٌ مخصوصة سريعة العمل يمكن ان تحدّد في اليوم ٢٠٠٠٠٠ ابرة. وهي مؤلفة من مسنّ مستدير من السنباذج مقعَّر المحيط تُعرَض عليه بكرة مغشّاة بالمطّاط والى جانبي البكرة مائدة قد غُشّي سطحها بالمطاط ايضاً تُجعَل الابر عند ملتقى السطح وأحد جانبي البكرة ثم تدار البكرة فتمرّ الابر تحتها الواحدة بعد الاخرى وتحتكّ بالمسنّ وهي دائرة على محاورها فتخرج من الجانب الآخر تامة التحديد ثم تُردّ فتحدَّد من الطرف الآخر . والبكرة توضع على المسنّ وضعاً منحرفاً بحيث تحتكّ الابر من احد طرفيها الى مسافة تقدَّر بميل البكرة

ومتى تمّ تحديد طرفيها تُعرَض للطبع وهو عبارةٌ عن ضرب اوساطها بقالبٍ يتفلطح به كلٌّ من الرأسين المتصلين في الموضع المُعَدّ للثقب وهذا

الطبع يتمّ بآلةٍ ذات عضادتين متينتين يجري بينهما ثقلٌ ضخمٌ يُرفع الى مسافةٍ ويؤخذ كل اربع أو ثماني ابر وتُصفّ على قطعةٍ من المعدن ويوضع القالب فوقها ثم يُترك الثقل فيهوي بين العضادتين سفلاً ويقع على القالب بقوةٍ شديدة فينطبع اثرهُ في الابر . وبعد ذلك تنقل الى آلة الثقب وهي شبيهة بآلة ضرب السكة تنتأ منها رؤوسٌ حادّة على وفق مواضع الثقوب ويُضغَط بها على الابر فتنثقب . وقد اخترعوا لهذا العمل آلةً تنقل الابر وتضعها في اماكنها وتثقبها وكل ذلك تفعلهُ من تلقآء نفسها

فاذا تمّ ذلك تُجمَع هذه الابر وتُنظَم في سلكين معدنيين يمرّ كل واحدٍ منهما في ثقب فتكون معُدّةً لصنعة البرّاد فيجعلها في ملزمة مخصوصة تحرَّك بالرجل ويزيل ما حدث فيها من الحيود اي الحروف الناتئة بعد الطبع ويفصل كلاًّ منها الى ابرتين وبعد الفراغ من ذلك كلهِ تُحمَى وتُسقى بالزيت ثم تُدفع للصقال . فتؤخذ حزَماً كبيرة يكون في الحزمة منها نحو ٥٠٠٠٠٠ ابرة وآلة الصقال تَسع في المرة الواحدة من ٢٠ الى ٣٠ حزمة اي من ١٠ ملايين الى ١٥ مليون ابرة . وفي هذه الحال توضع الابر بالخلاف اي تكون رؤوس بعضها الى جهة اطراف الأُخر وتجعل في نحو برميل يدار على محورهِ فيحتكّ بعضها على بعض الى ان تزول منها كل خشونة . وبعد الصقل تُنقل الى برميل آخر يجُعل فيه نُشارة خشب منخولة وتدار فيهِ ايضاً حتى يزول ما عليها من الآثار الدهنية ثم تُغربل في غربالٍ مخصوص لتخلص من النشارة . وهذه الاعمال من الصقل فما يليهِ تكرر الى عشر مرات احياناً في الابر المتقنة الصنع فلا يُفرَغ منها الا بعد ثمانية أو عشرة ايام

وهناك اعمالٌ اخر تكميلية منها ان تُنظم الابر كلها على اتجاهٍ واحد فتُجعل رؤوسها الى ناحية واطرافها الى اخرى وهذا العمل يتمّ بأن تُصفَّ الابر على طرف سطحٍ افقي وتُدفع بمسطرةٍ او نحوها دفعاً رفيقاً الى جهة الخارج ولما كانت الرؤوس اثقل من الاطراف فان الابر التي تكون رؤوسها الى الخارج تسقط بثقلها الى اسفل وتبقى الابر التي رؤوسها الى الداخل فتؤخذ ويعاد العمل في البواقي الى ان تنتظم كلها • ومنها ان تزرَّق اي تُعرَض رؤوسها على الحرارة حتى تزرقَّ فتُجمع في حقاق مخصوصة تُبرز رؤوسها منها وتسلَّط عليها شعبة لهبٍ غازيّ والغرض من ذلك ان يكون ثقبها أبينَ للنظر • ومنها التزليم وهو صقل بواطن الخُرَب اي الثقوب وازالة ما يكون على جوانبها من الحيود حتى لا تقطع الخيط وهذا يكون بأمرار رأس دقيق من الفولاذ في الثقب يدور بحركةٍ شديدة السرعة فيأخذ العامل قُبضةً من الابر يرتبها في يدهِ على شكل مروحة ثم يعرض ثقب كل واحدة منها على الرأس المذكور من الناحية الواحدة ثم الاخرى • فاذا تمّ ذلك كلهُ لم يبقَ الا ان تُجعل الابر في ورق على ترتيبها المعلوم وهذا العمل الاخير وحدهُ يقتضي ثمانية عمّال يتناوبونهُ الواحد بعد الآخر

ومما يلطف ايرادهُ هنا قول بعضهم في الابرة ملغزاً

سعت ذاتُ سُمٍّ في قميصي فأثّرت ... بهِ اثراً واللهُ يشفي من السُمِّ
كست تُبَّعاً ثوبَ الجمال وقيصراً ... وكسرى وعادت وهي عارية الجسمِ

خبايا الزوايا

ننقل الى حضرات القرّآء شذراً من كتابٍ وقفنا عليه لبعض ائمة الدروز لم نهتدِ الى اسم مؤلفه لان الكتاب ناقصٌ من اوله وانما العبرة بالقول دون القائل . ولا جرم ان من تأمل ما في هذا المنقول من الحكم الناصعة والزواجر الرائعة وما اشتمل عليه من الامر بالمعروف والنهي عن المنكر والتزام جانب الله في الزهد والتقوى والعمل للآخرة دون الدنيا علم ما في هذه الامة المستترة من الفضل والكمال وما تحت تلك الاعبئة الغليظة من كرم الشمائل ورقة الخلال　قال بعد كلام

.. اما بعد فالذي يثبتهُ البرهان والنقل　ويحكم به علم العيان والعقل أن لا راحة في الآخرة لمن تعجَّل الراحة في الدنيا　ولا حظّ للنفوس في النعيم لمن آثر حظّ الاجسام في دار الفنا　ولا غناء في الآجل　لمن كدّ بدنهُ رغبةً في العاجل　فمن اتعب نفسهُ في الواجبات　أُعطيَ الراحة فيما هو آت فالذي يوجبهُ العدل　ويقضي به العقل　حَسَبَ ما برز من الاوامر الواجبة والمواجب اللازبة　أن نراعي الذمةّ　ونحفظ حق النعمة　ونسلّم الامر الى صاحبه　ونصبر من الزمان على اهواله ونوائبه　فمن صبر على محن الزمان ادرك نعيم الجنان　ومن ذاق حلاوة الثواب　هان عليه المصاب　ومن لم يترك في الدنيا ما يحبّ لم يبلغ في الآخرة الى أرب　ومن لم يصبر على ما يكره لم يشاهد ما يرضيه في المنقلَب　ومن آثر في الدنيا طلب الجاه لم يبلغ في الآخرة ما يتمناه .. من آمن بالله اكتفى بالقيام بأوامره ومراده

ومن استسلم لانبيائهِ اشتغل بتحصيل زادهِ فان كنتم بالله مؤمنين وبرسلهِ مصدّقين وبكتبهِ موقنين وبرحمتهِ واثقين فلا يأخذكم الاسى على فوات جاه الدنيا المنقرضة مع الثبات على الطاعة المفترَضة فانظروا الى مصارع اهل الزمان ممن طلب الجاه والرئاسة وكثرة الاعوان كيف سُلب عنهُ دينهُ ودنياه وهدم منزلتهُ وخسر مسعاه في أُولاهُ وأُخراه فان رمتم الصولة والاستظهار وعلوّ الكلمة وانبساط اليد بالاقتدار في دار الدنيا ودار القرار فهذا مرامٌ لا ينالهُ احدٌ من الاخيار حتى ولا الانبيآء الاطهار فالاولى بكم ان تصرفوا العناية الى ما انتم بهِ مطالَبون وعنهُ مسؤلون وعلى تركهِ معاقَبون وعلى العمل به مثابون.. من استقصّ حقهُ من عدوّهِ في العاجل فلا حقّ له عليهِ في الآجل فما جعل الله للعبد جنّتين ولا قدّر لهُ راحتين ولا حكم لهُ بنعيمين فنعيم الدنيا ينال بالصبر والاحتمال وعذابها يطال على اهل التعدي والضلال فاستدركوا فرصة الفوت وحيدوا عن طريق الموت فلا محنة اشقّ في هذا الزمان من موت العقل والجَنان فمن مات جسمهُ عُزّي في دنياه ومن مات قلبهُ عُزّي في أُخراه واعلموا ان الدنيا ميدان والاجسام خيل والنفوس فرسان والسباق هو الى الله فما يلحق بالقوم الا من شمّر ولا يباري في حلبة السباق الا من ضمّر ومن صبر مدةً قليلة ادرك فرصةً طويلة فما الدنيا مع الآخرة الا كالهبآء في الفضآء كما قال داود النبيّ عليهِ السلام ما مَثَل الدنيا مع الآخرة الا كمثل قطرةٍ طارت من سبعة ابحر في صحاري رمل والذي اقعدكم عن نهج الطريق الواضح موت القرائح والكسل

الفاضح وعدم القبول من الناصح والتعامي عن الذنوب والرخصة في اتّباع الحقّ المندوب فموافقتكم لاهل الحق هي بالطبيعة والاجسام وانتم في غاية البعد عنهم بالعقول والافهام فلهذا ابت نفوسكم ان تتحد بالعنصر الكريم الشريف لعجزها عن درك العبادة المنيف لقد انشبت فيها مطالب الشهوات سهامها وانفذت فيها مقادير الزلات احكامها حتى سيَّرتها من عالم الكون والفساد واخرجتها من بيوت القصد والمراد وجعلتها غرضاً لاسباب البلآء وطردتها من الحَرَم الحصين الى شقوة البيداء تلسعها اراقم الزلات وتفترسها ضراغم الشهوات قد سُلِبت معارفها بموبقات الاعمال وانحدرت في دَرَك المسوخية الى الانخفاض والاستفال فلم ينجع فيها الوعظ والتذكار ولم ترتدع بالزجر والتهديد والتخويف من حريق النار ولم تصدّق بسخط العليّ الجبار على من عصى اوامرهُ واتّبع سبيل الاشرار * * * *

الاستحمام بالضيآء

بقلم حضرة الاديب الياس افندي الغضبان

ربما سبق الى ذهن المطالع ان المقصود بهذا العنوان استحمام بعض الكتب العصرية ولا سيما مؤلفات الآبآء اليسوعيين التي لم تزل عند اول كل شهر ومنتصفه تستحمّ في اشعة مجلة « الضيآء » لتطهيرها من ادران التصحيف والتحريف وازالة ما التصق بهذه الادران من « الميكروب الجزويتي » الذي هو « الدآء الخبيث » أو لوقاية القرآء من « الدآء الخبيث »

الذي هو « الميكروب الجزويتي » بعينهِ كما عرّفتهُ لنا صريحاً مجلة المشرق الغرّاء[١] . وانما غرضي هنا الكلام على شيء آخر وهو الاكتشاف الجديد الذي حدث في عالم الطبّ وقد ذكرتهُ احدى المجلات الفرنسوية تحت العنوان المذكور قالت

ما زال اصحاب الطب الحديث دائبي البحث والتنقيب عما تشتمل عليهِ الطبيعة من الخواص النافعة في معالجة الامراض . وقد وُفّقوا في هذه السنين الاخيرة الى واسطة فعّالة من العلاج انتشرت انتشاراً عظيماً في اوربا واطلقوا عليها اليق لفظٍ تسمى بهِ وهو « الاستحمام بالضياء »

وهذا الاستحمام يتمّ بواسطة جهاز اشبه بخزانة مثمنّة الزوايا مصفحة بتمامها من الداخل بمرآءٍ ينعكس عنها الضيآء من عددٍ محدود من مصابيح كهربآئية في درجة البياض بحيث يكون بين يدي الطبيب واسطتان للعلاج هما في منتهى القوة ونعني بهما الحرارة والضياء

فأما الحرارة وهي تكون في هذا الجهاز جافةً بالطبع ويمكن ان ترتفع الى ما فوق ٨٥ درجة فانها من الوسائط المحمودة في كلا الطبين القديم والحديث لان من خاصيتها كما هو معلوم ان تزداد بها قوة التجديد في موادّ الجسم وتستدعي ردّ الفعل اللازم لزيادة الاشتعال الداخلي بحيث انهُ بواسطة العرق الناشئ عنهُ يحصل افراز الفضلات السامّة التي تتجمع في انسجة البنية

واما الضياء فهو من الوسائط المستعملة حديثاً في العلاج اذ قد تبين من الاختبارات البكتيريولوجية انهُ اذا وقع ضوء الشمس مباشرةً على مجموعٍ

(١) السنة الخامسة من المشرق صفحة ٣٣٥

من الجراثيم العضوية المرضية تهلك هذه الجراثيم بجملتها في بضع ثوانٍ وفي الوقت عينه يبطل فعل السمّ الذي تفرزهُ . ولما كان الضوء الكهربائي اقرب الانوار الى ضوء الشمس امكن ان يُتوصل باستعماله على مُددٍ مقدَّرة الى نفس النتائج الصادرة عن ضوء الشمس

فحمّام الضياء اذن يفيد في العلاج من وجهين احدهما الحرارة وبها تعالج جميع اصناف الرَّثية (الروماتزم) المفصلية والعَضَلية والنقرس وما جرى هذا المجرى . والآخر الضياء وبه تعالج جميع العلل الجلدية من ابسط اصناف الشرَى الى اخبث انواع القروح

واذا اجتمعت هاتان القوتان كانتا افضل علاج محقق النفع للسِمَن المفرط بحيث ان المتعالج بهما يضمر جسمهُ بالتدريج لكن بدون ان ينالهُ ادنى تأثير في الجهاز العصبي (الدماغ) او الجهاز الوعائي (القلب) كما يقع كثيراً عن استعمال الادوية الصيدلية التي تجهَّز للغرض نفسهِ والجلد مع ذلك يبقى دائماً على نضارتهِ ومرونتهِ ولا يتقلص الا تدريجاً بمقدار ما يذهب من المادة الشحمية . انتهى

الحمَّار وابنهُ وحمارهُ

من نظم حضرة الاديب جبران افندي النحاس

لو كلما ثرثرَ انسانٌ وَجبْ   سماعهُ متنا ولم نبلغ أربْ
وما الذي استصوبهُ كل الورَى   فاترك ملام الناس وافعل ما ترى
فالعجز عارٌ والنجاح مغفره   اما نقُوع الأُذن فاسمع خبره

وانمـا يُفيـدُ ايراد الخـبَرْ لمن رأى العـبرة يوماً فاعتـبرْ
دعا امرؤٌ ولدَهُ وسارا حتى يبيع معَـهُ حمـارا
وكي يُظنَّ انهُ ما زالا جحشاً فتيّاً قلعـا النعـالا
ثمـةَ اوثقـاهُ مثـل السَخْلَه وحملاهُ يا لهـا من حمـله
حتى اذا ما صار فوق الرأسِ سارا به مثل جهاز العرسِ
فأول امرئٍ عليـهِ ألقَى نظرهُ قهقـه حتى استلقى
وقال حقّـاً انصفوا فاحسنوا حُمُرُهم لا كالذي نخمّنُ
فخَبل الحمّـارُ من فرط الخجل وانزل الحمـارَ عنـهُ بالعجَل
اما الحمار فاشتكى وعاتبا اذ كان يستحلي الذهاب راكبا
لكن تراءى الشيخُ بالتغاضي عن بدع جحشهِ في الاعتراضِ
واركب ابنَـهُ وحث الراحله حتى اذا ما صادفتهم قافـله
صاح كبير القوم في ذاك الصبي وقال تبّاً لك من غِرّ غبي
تركبُ والشيخ الجليل راجلُ هلاّ احترمتَ سنّهُ يا غافلُ
تتركـهُ في عجزهِ المـلازم يدلف من خلفك مثل الخادمِ
اولى لك اُخسأ فترجلْ عجِـلا فنزل الغُـلامُ والشيخ اعتـلى
حتى اذا لاقتهُ بعض النِسوَه قلنَ لهُ ويلك ما ذي القَسوَه
شيخٌ كبيرٌ وقليل الهيبَهْ لا عاف عزرائيل هذي الشيبهْ
قد قمت كالهامة فوق الجحشِ وخلفك الطفل الصغير يمشي
فأردفَ الغلامَ لكن لم يكد يجوز خمسَ خطواتٍ بالعـدد
حتى بدا لوجهه من قالا قتلُ الحمـير قد غدا حلالا

ماذا يرى الشيخُ الذي قد حملا حمارَهُ عيالهُ والمنزلا
أليس فيهِ رأفةٌ بعبدهِ أم اكتفى بعظمهِ وجلدهِ
فهتف الحمَّار لا حول ولا قد جُنَّ من اراد ان يرضي الملا
وقال بعد قدح زند الفكرهْ لعلنا نحسنُ هذي المرَّهْ
وقام وابنهُ معاً وسارا وعن قليل صادفا مهذارا
فقال كاشراً عن الانيابِ أهُوَ زيُّ اليوم يا اصحابي
ان يتخطى جحشكم دلالا وان تخوضوا خلفهُ الاوحالا
ان شئتمُ أن تسمعوا كلامي فالآنَ وافى زمنُ الزُكامِ
فاشرُوا لهُ بعضاً من الخفافِ كي لا يسير في الطريق حافي
ومن فروض الاخوةِ المحبَّهْ قال الفتى وقد اضاع لُبَّهْ
انا حمارٌ وعدمتُ نفسي شنقاً اذا ركبتُ غير رأسي
كن تاجراً أو كاتباً أو حاكما أو خادماً أو جاهلاً أو عالما
أو مكثراً أو مقتراً أو عازبا أو آهلاً أو فاتكاً أو راهبا
أو غير هذا ان تُرِدْ أم لم تُرِد لا تنجُ من لذع لسان المنتقدِ

اسئلة واجوبتها

القاهرة — تطفلت قبلاً على حضرتكم بالسؤال عن مشاكل عنّت لي في اثناء مطالعتي لمعجم الجزويت المعهود فلم تضنوا عليَّ بايضاحها بما كشف غواشي الابهام ومزّق حواشي ذلك الظلام بيد أني ما زلت ارى في هذا الكتاب الغازاً يصعب عليَّ حلها فكأن المؤلف قصد ان يجعلهُ مجموع

احاجيّ يمتحن بها بصائر الادبآء والدارسين أو كذلك اللغز الذي جعلهُ الشاعر عقدةً للشعرآء الى يوم الدين ولذا لم اجد بدًّا من العود الى قرع ابواب فضلكم راجياً اجابتي على الاسئلة الآتية لا زلتم مقصداً للمُريد ولا برح ضيآؤكم الساطع هدًى للمستفيد

فمن ذلك قولهُ في مادة (خ ي ر) — وقد فاتني ان اذكرهُ في المرة السالفة — «يقال امرأةٌ خِيرَى وخُورَى اي فُضلَى» والذي اعهدهُ ان افعل التفضيل لا يتصرَّف الا مع أل أو الاضافة الى معرفة وقد كررهُ هنا ثلاث مرات بصيغة المؤنث مع انهُ نكرة فما الوجه في جواز ذلك

وقال في هذه المادة ايضاً «الخيرّ الكريم وقيل الخَيْر بالتخفيف في الجمال والميسم والخيّر بالتشديد في الدين والصلاح» فما معنى هذا الكلام

وقال في مادة (س ط ر) «المسطرة بالكسر ما يسطَّر بهِ الكتاب» وقد راجعت ترجمة سطَّر فوجدتهُ يقول فيها «سطَّر ألَّف الاساطير وفلانٌ علينا جآء بأحاديث تشبه الباطل وفلان على فلان زخرف لهُ الاقاويل ونمقها» اه ولم يذكر «سطَّر الكتاب» فهل ترك ذكرهُ سهواً ام هذا الفعل غير موجود في اللغة وان كان الثاني فمن اين جآء بهِ المؤلف

وفي مادة (ن م غ) «النمغة ما يخرج من يافوخ الحبيّ اول ما يولد» وهو كلامٌ لم افهم منهُ شيئاً وقد بحثت عن معنى «الحبيّ» في موضعهِ فوجدتهُ يفسرهُ بالسحاب الذي يعترض اعتراض الجبل ... فكيف يكون للسحاب يافوخ وما الذي يخرج من يافوخهِ وما معنى قولهِ اول ما يولد.

اللهمَّ ان هذه طلاسم لا قبل لنا بحلها زهدي ابراهيم

الجواب — اما قولهُ « يقال امرأةٌ خِيرَى وخُورَى الى آخرهِ فالصحيح ان كل ذلك « لا يقال » للسبب الذي ذكرتموهُ. وعبارة القاموس في هذا الموضع « فلانة الخيرة من المرأتين وهي الخَيْرة والخِيرة والخِيرَى والخُورَى » فأورد كل ذلك بالتعريف . ومثلها عبارة اللسان

واما قولهُ «وقيل الخير بالتخفيف في الجمال» الى آخر ما اوردهُ فالذي في كتب اللغة ان هذا الفرق في الخَيرة بالتاء لا في الخير . قال في لسان العرب « قال الليث رجلٌ خيّر وامرأةٌ خيّرة فاضلة في صلاحها وامرأةٌ خَيْرة في جمالها وميسمها ففرق بين الخيّرة والخَيْرة » . اه . والى هذا تشير عبارة القاموس لمن تبصَّر مرادهُ وعرف اصطلاحهُ وقد اوضحهُ في تاج العروس بما لا يحتمل الاشكال

واما قولهُ « المسطرة ما يسطَّر به الكتاب » فهو من زيادات المرتضى فيما استدركهُ على القاموس فكان عليهِ وقد ذكر المِسطرة في محلها ان يذكر سطَّر ايضاً في محلهِ ويفسّرهُ كما فعل صاحب محيط المحيط الذي نقل عنهُ . ولكنهُ حذفهُ لان صاحب محيط المحيط جعلهُ من كلام العامّة وهو قد اعتاد ان يحذف الالفاظ العامية من الكتاب غير انهُ لما انتهى الى ذكر المسطرة والفعل نفسهُ مذكورٌ في تفسيرها نسي انهُ حذفهُ هناك فأبقى العبارة كما هي حتى لا يكون صنيعهُ في الموضعين الا تقصيراً لانهُ ان كان سطَّر عاميّاً فتكون المسطرة مثلهُ لان كليهما من موردٍ واحد وكليهما غير منقولٍ عن العرب فكان يجب اما اثباتهما جميعاً واما حذفهما جميعاً. على ان الاظهر عندنا ان كلا اللفظين مولّد واشتقاقهُ من السطر وهو مأخذٌ صحيح

كمأخذ سائر الالفاظ المولدة

واما قولهُ « النمغة ما يخرج من يافوخ الحبي » فمن الخش ماء رأينا من ضروب التحريف ومن أدلّه على علم الكاتب بما يكتب . قال في تاج العروس « النمَغة محركة ما "تحرَّك" من يأفوخ "الصبيّ" اول ما يولد » فتحرَّف عليه ِتحرَّك بيخرج والصبيّ بالحبيّ » فهكذا فليكن من الَّف في اللغة والا فلا . . . . . .

آثار ادبيّة

تقويم المؤيد — ظهر هذا التقويم المفيد لسنة ١٣٢٠ الهجرية وهي السنة الرابعة لهُ محرراً بقلم حضرة الكاتب الالمعي محمد افندي مسعود احد منشئي جريدة المؤيد الغرآء وقد وسَّع فوائدهُ وزادهُ اتقاناً عما كان عليهِ في السنين الماضية وهو حسن الطبع والتجليد يقع فيما يقرب من ٣٠٠ صفحة وثمنهُ خمسة غروش مصرية

الغزالة — هي الجريدة الادبية الفكاهية المشهورة عادت الى الظهور في هذه الايام بعناية والتزام حضرة صاحبها الاديب يعقوب افندي الجمال صاحب الروايات الشهرية وقد جعلها بهيئة مجلة تظهر مرتين في الشهر في ٣٢ صفحة متوسطة مكتوبة على عهدها باللغة العامية وقيمة اشتراكها السنوي ٢٥ غرشاً

فكاهات

لكلّ امرئٍ ما نوى

كان لعهد لويس الرابع عشر ملك فرنسا شريف من نبلاء الفرنسويين يدعى ارمان لوري اختارتهُ الحكومة لبعض الوظائف المهمة لما رأت فيهِ من سعة الرويّة وعلوّ الهمة وحسن التدبير ورغبتهِ في مصالح المملكة والامة . ولم يكن هذا الشريف في الاصل من الاسر العريقة في النسب ولكنهُ تقدم على اقرانهِ بالعلم والادب وسموّ المدارك واستقامة المسلك وفاق سواهُ في الاقتصاد السياسي وخدمة البلاد والبلاط الملوكي فلم ينكر مزيتهُ احد واشرق نجمهُ متلألئًا في افق السعادة . وكان ملك فرنسا بالاسم اي لويس وملكها بالفعل اي الكردينال مازارين مع تباين مقاصدهما واعمالهما قد اتفقا على ان يقدرا ارمان حق قدرهِ . فادنياهُ من المراتب العالية وجعل كلٌّ منهما يرقيهِ الى وظيفةٍ ارفع مما قلدهُ الآخر فلم تمضِ عليهِ سنوات عديدة حتى صار من ارباب الشورى يعوَّل عليهِ في معضلات الامور وسنّ القوانين العامة وما زال حظهُ في تقدم ونجمهُ في ارتفاع حتى اقطعهُ الملك اراضي واسعة وغمرهُ الكردينال بغنىً وافر ثم انعما عليهِ بلقب الدوق لوري فصفا لهُ جوّ الحياة وانقطع الى تدبير وسائل جديدة ينفع بها مملكتهُ في مقابل ما جاءهُ منها من النعم والخيرات

ورأى الدوق لوري الاضطراب والفساد السائدين في اللوفر فسوّلت لهُ نفسهُ ان يسعى في اصلاح داخلية القصر الملكي وظن ان في الامر سهولةً ولكنهُ ما عتم ان رأى استحالة ذلك لاستفحال الخلاف بين الملك والكردينال من جهة ومن الجهة الاخرى لكثرة الشرور والمفاسد والآثام التي كانت تتفاقم ضمن جدران اللوفر

---

(١) معربة عن الانكليزية بقلم نسيب افندي المشعلاني

و يسترها عن عيون الشعب هيبة الملك وخبث مازارين . و بعد ان سعى لوري جهدهُ في الامر تركهُ وقد تحقق ان لا خير يرجى من تعبهِ . ثم اخذ نجم سعدهِ في الهبوط فجعل الملك يحتقرهُ لظنهِ انهُ من حزب الكردينال والكردينال يسعى في كسر شوكتهِ زعماً منهُ انهُ يميل الى الملك فدارت على رأس الدوق دواليب الحيل والوشايات وعلم انهُ ان بقي على ما هو عليهِ لا يسلم من تهلكةٍ يُلقى فيها فاعتزل الاعمال وتجنب الخدمة ثم استقال من منصبهِ وعاد الى املاكهِ . وجآء عملهُ هذا مرضياً لرغائب لويس ومازارين فاكتفيا منهُ بذلك ونسيا في مدة قصيرة انهُ كان يوجد في المملكة شخصٌ يسمى الدوق لوري

وكان للدوقِ لوري ابنان يدعى اكبرهما ألبر واصغرهما اوغست فلما بلغا سنّ الشباب ورأيا نفسيهما في عزٍّ ونعيم بين امثالهما من فتيان الفرنسو بين اهملا امر الكدّ والدرس وانهمكا مع رفاقهما في الملذات والمسرات . وكانت اشغال والدهما من جهةٍ وحنوّ قلبهِ من جهة اخرى يصدّانهِ عن الانتباه الى سلوك ولديهِ فغض الطرف عن اعمالهما وهو لا يدري انهُ يربّي لنفسهِ بهذا العمل افاعي تنهش لحمهُ وتلسع قلبهُ في زمن شيخوختهِ . ولم يرَ الولدان رادعاً لهما عن اعمالهما فازدادا انغماساً في الشهوات والفجور والتهتك والمقامرة ولم ينتبه الدوق للامر الا بعد فوات الفرصة و بعد ان يبس الغصن وصار لا يمكن تقويمهُ الا بكسرهِ . وكان ذلك حين استقالتهِ فوجه كل اهتمامهِ لردع ولديهِ فلم يفلح و بعد ان اتخذ كل الوسائل التي في استطاعتهِ ورآها لم تأتِ بفائدة طردهما من بيتهِ ومنع عنهما المال الشهري الذي كان قد رتبهُ لنفقاتهما وعاد الى املاكهِ البعيدة يقضي بقية حياتهِ في التندم والاسف على غباوتهِ الماضية في عدم الانتباه الى حالة ولديهِ قبل ان تورطا في شرورهما الى هذا الحد

ولما انقطع المرتب الشهري عن الولدين عمدا الى رفاقهما يستدينان منهم اجزآء قليلة مما انفقاهُ عليهم فقبلهما هؤلآء بصدور رحيبة لما يعلمون من غنى والدهما الدوق وهم يظنون انهُ في نهاية الشهر ترد على الولدين المرتبات المفروضة فيردّان ما اخذاه ولكن لما علموا ان الدوق قد طرد ولديهِ ابتعدوا هم ايضاً عنهما فاصبحا في حالةٍ

يرثي لها من الشقآء والحاجة وابتدأا يذوقان كاس المرارة التي ادناها الدهر من شفاههما بعد كاس الحلاوة التي متعهما بها زمانًا

وكأن ألبر ورث عن والدهِ شيئًا من التعقل لم ينزعهُ طيشهُ بتمامهِ ففكر في حالتهِ وما صار اليهِ وادرك ان لا سبيل الى اصلاح احوالهِ الا بالرجوع الى ابيهِ وطلب الصفح والغفران فجآء الى قصرِ والدهِ وطلب مواجهتهُ فلم يسمح لهُ بها وبعد ان الح وتردد وتوسل على غير جدوى عاد الى باريز حزين النفس مكسور الخاطر يطلب الموت ليريحهُ من شقآئهِ . ثم ذهب الى بعض النبلآء من اصدقآء ابيهِ وطلب اليهم ان يتوسطوا في امرهِ لدى والدهِ ففعلوا غير ان الدوق ابى قبول شفاعة احد في ابنهِ وقال ان ألبر هو الذي سآءني وجلب على شيخوختي الحزن واليأس وهو الذي جرّ اخاهُ الى حضيض الفساد والذل فلست بقابلٍ توبتهُ لاني لا أعتقد صحتها ولو طلب ذلك مني اخوهُ اوغست لما تمنعت لاعتقادي ان لا لوم عليهِ فقد قادهُ اخوهُ الى ما فعل أما ألبر فلا يطمعنَّ في رضاي فلن يحصل عليهِ ما دمت في صحة عقلي

اما اوغست فلم يكن يهمهُ شيء من كل ذلك وكان قد حسب نفسهُ فريدًا في العالم لا يعوّل على احد فجعل مقرّهُ الحانات ودأبهُ الميسر والمسكر

وكان ألبر يقف بعض الاحيان في ازقة باريز يعضّ اصابعهُ لهفًا على حياتهِ السابقة فيتصوَّر نفسهُ مهانًا مرذولاً مطرودًا من بيت ابيهِ يشتهي ان يقتات بفضلات الطعام التي يرميها خدم قصرهِ فكان كلما طرأت على مخيلتهِ هذه الافكار يشعر بفقد صوابهِ ولا يجد لهُ راحةً الا بالانتحار وكثيرًا ما كان يقف على شاطئ السين ويهمّ ان يلقي نفسهُ في تيارهِ ثم يعود فيقول لنفسهِ لا . لا يجب ان اكمل آثامي بهذه الخاتمة وهي اشدّ ردآءةً من البدآءة فلا بد من اصلاح امري واني وان كنت قد استوجبت حرمان نفسي من ثروة ابي فلست براضٍ ان احرم نفسي من بركتهِ قبل موتهِ

وبينما كان ألبر سائرًا في احد الايام في احد شوارع باريز وجد نفسهُ امام معمل صابون فوقف حائرًا ورآهُ صاحب المعمل فسألهُ عن شأنهِ فقال اني فقيرٌ يا مولاي ولا تطيعني نفسي على الاستعطآء ولي قوة كافية للشغل اذا وجدتهُ فهل

لك ان تقبلني في عداد العملة الذين يعملون تحت ادارتك . ورأى المدير في لهجة ألبر ما حرّك شفقتهُ عليهِ فادخلهُ الى محلهِ وعين لهُ شغلاً كباقي العملة فما صدق ان جلس الى وظيفتهِ حتى ابتدأ بعزمٍ نشيط وكانت دموعهُ لا تفارق مقلتيهِ عند تذكرهِ احوالهُ وما وصل اليهِ . ثم شغلهُ العمل عن التفكر فاعتادهُ شيئاً فشيئاً وصمم عزمهُ على الابتدآء بحياةٍ جديدة يسعى في ميدانها فاما ان يفوز بما في نفسهِ او يموت وهو في ذلك الجهاد .ورأى مديرهُ حسن سلوكهِ وكأن عاملاً خفياً جعل في قلبهِ حباً للفتى وشفقةً عليهِ فجعل يزيد اجرتهُ ثم عرض عليهِ ان يستودع لهُ عندهُ ما جمع من الدراهم ويدخلها في العمل ويعطيهِ ما يصيبها من الارباح فقبل ألبر شاكراً وساعدهُ القدر فاخذت احوالهُ في التحسن وحالتهُ في النجاح

واجتهد ألبر في ابلاغ والدهِ تحسن حالتهِ ولم يكن الباعث لهُ على ذلك الطمع في الاستيلآء على الثروة والجاه ولكنهُ كان يشعر بافتقارٍ شديد الى بركة والدهِ ورضاهُ عنهُ قبل موتهِ . اما الدوق فكان لا يبالي بما يسمعهُ عن ألبر بل جعل يتوقع توبة اوغست صغيرهِ لانهُ كان قد وقف حبهُ عليهِ ولم يضمر لالبر الا الكراهة والبغض وكان يبلغهُ في كل يوم اخبارٌ عن اعمال اوغست وشرورهِ فيسكب دموعاً سخية ويطلب الى الله ان يردّهُ اليهِ تائباً

ولم يعد الدوق يهتمّ لشيءٍ في العالم فانقطع في قصرهِ وقد حنى ظهرهُ الكبر وبيضت شعرهُ الشيخوخة فحبس نفسهُ في غرفتهِ ولا انيس لهُ سوى خادم امين كان قد رباهُ وجعلهُ خادماً ورفيقاً واميناً على اعمالهِ واسرارهِ . وكان هذا الخادم يرى انقلاب ألبر وتوبتهُ وسقوط اوغست وخسارتهُ فمال الى البر سرًّا ولكنه لم يكن يجسر ان يجهر بذلك لئلا يفقد مودة مولاهُ ومكانهُ من ثقتهِ فصبر على تلك الحالة وكان كلما سمحت لهُ الحال يبلغ البر عن حالة والدهِ ويسليهِ على مصابهِ

ولما حسنت احوال البر ورأى ان ذلك لا يفيد في استرضآء والدهِ جعل همهُ مساعدة الفقرآء والبائسين وكان من حين الى آخر يستدعي اخاهُ ويجتهد في اصلاحهِ فيسمع هذا مواعظهُ وارشاداتهِ ويأخذ منهُ مبلغاً من المال ثم يعود الى شرٍّ مما كان

ومرض الدوق مرضاً شديداً فاستدعى خادمهُ نطس الاطبآء و بذل وسعهُ في استعمال كل ما يمكن عملهُ للمحافظة على صحة مولاهُ ولكنهُ كان قد نفذ القضآء واصبح الدوق تحت خطر الموت فأعلمهُ الاطبآء بذلك وتركوا منهم واحداً يزورهُ من حين الى آخر عملاً بارادتهِ . و بلغ الخبر البر فاجتهد اذ ذاك ان يزور والدهُ فمانع الاب بصلابة قلبٍ صخرية ورفض مواجهتهُ قطعياً ولكنهُ كان اذا اشتدت عليهِ حمى المرض ينادي باسم اوغست ويتمنى عودتهُ اليهِ ثم امر خادمهُ ان يرسل يستدعيهِ . اما اوغست فلم يهمهُ الامر وكان اكثر اوقاتهِ في مجامع القمار او حانات المسكر فلم يحفل بطلب والدهِ ولم يهمهُ شيءٌ من امرهِ . وصادف اوغست في بعض المحلات التي كان يتردد عليها فتاةً سلبت لبهُ فاحبها حباً مفرطاً وطلب اليها الاقتران بهِ فقالت لهُ الفتاة انها مخطوبة لفتىً من اسرتها فلا سبيل لها الى اجابة طلبهِ . فثار عامل الغيظ في صدر اوغست ولما كان قد تربى ولم يرَ في حياتهِ من يمسك شكيمة افكارهِ او يمانعهُ عن بلوغ مشتهياتهِ صمم على الحصول على الفتاة باية طريقة تمكنهُ. وتعرَّف بعد ترددهِ اياماً الى الحانة بخطيبها ولم يمضِ عليه وقتٌ طويل حتى صادقهُ فصارا يلعبان و يسكران معاً . وفي ذات يوم اشتدّ سكر اوغست فقال لهُ لقد رأيت خطيبتك يا صاح وقد احببتها جداً واودّ الاقتران بها فهل تسمح لي بها . فقال وكيف ذلك وهل سمعت باحدٍ قبلك طلب مثل هذا الطلب . ثم اخذ الاثنان في المحاورة والمجادلة فاتفقا اخيراً ان يلعبا معاً وان الغالب منهما يكون الاحق بالفتاة . فطلبا ادوات اللعب وخمراً جديدة وجلسا وقد ايقن اوغست بفوزهِ لما يعلم من مهارتهِ في الميسر وقد انفق فيهِ حياتهُ باسرها غير ان سكرهُ الشديد في تلك الليلة افقدهُ رشادهُ فخسر مبلغاً من المال وزادت الخسارة في حدَّتهِ فلم يعد يتمكن من اللعب وايقن بعد خسارة مالهِ انهُ قد خسر الفتاة فرمى الاوراق من يدهِ ثم استل من منطقتهِ خنجراً وطعن الفتى في صدرهِ فسقط الى الارض يتشحط بدمهِ

ورأى صاحب الحانة ما حصل فوثب الى نافذة المنزل واستدعى الشحنة فجآء احدهم وضبط الواقعة ثم اقتاد اوغست الى السجن . وظهر بعد ذلك ان جرح الفتى

غير ذي خطر فاخذوهُ الى المستشفى وجعلوا ينتظرون تعافيهُ واقامة الدعوى على اوغست لينال ما يفرضهُ عليه القانون

وبلغ الخبر ألبر فاسودت الدنيا في عينيهِ ولم يطق ان يرى اخاهُ في سجن المجرمين وعلم ايضاً ان اقل جزآء ينالهُ على هذا العمل اذا لم يمت المجروح ثلاث سنوات في الاعمال الشاقة. ثم فكر انهُ اذا بلغ الخبر والدهُ فلا شك انهُ يعجل وفاتهُ فيموت حزيناً مكسور القلب . وكانت شريعة البلاد لذلك العهد في ايدي النبلاء وكانوا اذا اجرم احدهم لا يحملونهُ العقاب كبقية الناس هذا اذا كان من ذوي الالقاب والا عاملوهُ كاحقر الشعب وسجنوهُ مع افظع المجرمين . وللحال خطر لألبر ان يسعى جهدهُ في اقناع والدهِ ان يمنح لقبهُ لاوغست فاذا فعل يخلص اخاهُ من الذل والعار فلم يرَ بدًّا من السعي لمقابلة ابيهِ وتوجه الى القصر . ولما دخل غرفة الاستقبال جاءهُ الخادم فاطلعهُ ألبر على سبب مجيئهِ فشق الامر على الخادم جدًّا وقال ان دخولك على مولاي من المستحيل لانهُ لا يرضى بهِ وقد قال لي الطبيب اليوم انهُ صار على دقائقهِ الاخيرة فاقل اضطراب او عارضٍ فجآئي يحصل لهُ يطفئ النور الباقي في سراج حياتهِ. فقال البر كنت اود ان افديهُ بدمي ولكن هذا حكم لامردّ لهُ واظن ان وفاتهُ ايضاً تفيد في خلاص اخي اوغست اذا كان قد جعلهُ الوارث للقبهِ فهل كتب ابي وصاتهُ الاخيرة وهل تدري شيئاً منها . قال الخادم اعلم انهُ كتب وصاتين اودعهما في ظرفين مختومين على مائدة بالقرب من سريرهِ ولما علم بدنو اجلهِ امرني ان ابقي نارًا بالقرب منهُ وقال لي انني قبل مفارقتي الشعور سأطرح احدى الوصيتين في النار فالتي اتركها يجب ان يُعمل بها وتتم رغبتي بمقتضاها . ففكر ألبر مليًّا ثم نظر الى الخادم وقال لهُ وكيف حالة والدي الآن . قال اصبح في غاية الضعف وقد فقد بصرهُ وشيئاً من سمعهِ . قال البر اذهب وقل لهُ ان ابنك اوغست جآء وهو يطلب مقابلتك ليتوب اليك وينال رضاك . فوقف الخادم مترددًا كالمبهوت وقبل ان يجيب الحَّ عليهِ البر بالامتثال خشيةَ ان يفوتهما الوقت فذهب الخادم وهو لا يدري ما هي غاية البر وماذا يريد ان يفعل

ولما ابلغ الخادم الدوق ان ابنهُ اوغست جآء ويطلب مقابلتهُ ترقرقت الدموع في مآقيهِ وقال بصوتٍ متهدج وافرحتاه انني الآن اموت مسرورًا فاحضرهُ اليَّ في الحال لاني اشعر بدنو اجلي . فعاد الخادم الى البر واخبرهُ بما حصل فتجلد البر وقال للخادم تعالَ معي يا هذا ولكن اياك ان يظهر منك ما يجعل والدي يعرف انني البر ولست اوغست . ثم مشى الاثنان ولما دخلا الغرفة ورأى البر والدهُ بعد تلك المدة الطويلة ملقىً على سرير موتهِ وقد كلَّ بصرهُ وخارت قواهُ واصبح كالطفل لم يتمالك نفسهُ من ذرف الدموع ثم جآء فجثا لدى السرير واخذ يد والدهِ وجعل يقبلها ويبكي . وشعر الدوق بذلك فقال بصوتٍ ضعيف أهذا انت يا حبيبي اوغست لقد طالما استدعيتك لتأتي اليَّ فاباركك واتزود من مرآك ولكن قلب اخاك القاسي منعني من هذه النعمة فالحمد لله على مجيئك ولو اتيتني متأخرًا . ثم توقف هنيهةً وقال لم اعد استطيع سماع كلامك يا ولدي فخذ يدي بيدك واذا سألتك فأجبني بضغطها مرةً علامة النفي ومرتين علامة الاثبات . انني اعلم ان الذي اوصلك الى حالة الشقآء التي كنت فيها هو اخوك الخبيث البر ولكن قل لي الحق هل تبت الى الله الآن وهل نبذت سلوكك الماضي وصممت على ان تعيش كما يليق بمقامك الآن . فضغط البر على يد والدهِ علامة الايجاب . فتبسم الشيخ وقال انني يا ولدي الحبيب قد كتبت وصيتي واوصيت بلقبي واملاكي وثروتي بأسرها لك ولما لم تأتِ اليَّ وخفت انك لا تأتي على الاطلاق كتبت صورة الوصية باسمِ اخيك البر لانني مع بغضي لهُ رأيتهُ احق من الحكومة بالاستيلآء على مال ابيهِ . وقد وضعت الوصيتين امامي حتى اذا عدتَ انتَ طرحت وصية اخيك في النار او عاد هو اعدمت وصيتك وايقنت انك لستَ بعائد . اما الآن وقد تمَّ سروري برجوعك فسأحرق ما كتبت لاخيك وتصبح انت وارثي الوحيد وحامل اسمي وصاحب املاكي واذا شئت ان تعطي اخاك شيئاً فانت وما تختار . ثم مدَّ الدوق يدهُ الضعيفة الى المائدة التي امامهُ واخذ واحدًا من الظرفين المختومين وطرحهُ في النار فالتهمتهُ . وكان الخادم قد بلغ منهُ التأثر وعزم ان يقول للدوق ان اوغست لا يزال شاردًا متمردًا وان ولدهُ

التائب الجاثي امامهُ هو البر ليمنحهُ بركتهُ ووصيتهُ ولكن البر نظر اليهِ نظرة زجر فأسكتهُ

ثم قال الدوق تعالَ يا ولدي لتباركك نفسي وضمّ البر الى صدرهِ فقبلهُ وقال لهُ ليمنحك الله بركتهُ فلا تعود الى طريقك السابق وليعطك حكمةً لتتبع الطريق الصالح وتحيي ذكر والدك ولتمطر السمآء عليك بركاتها فتزيد غناك اضعاف ما تركتُ لك . اما اخوك البر فلا العنهُ في ساعة موتي الاخيرة فانهُ ابني ولو كان قد كدَّر صفو حياتي ونغص عيشي فهو مبارك ايضاً وكفاهُ قصاصاً انني لم ارهُ ولم اضع يدي على رأسهِ . ثم لفظ الدوق روحهُ فمات كانطفآء المصباح

ولما سكنت حركة الجثة وتملكها الموت والبر والخادم واقفان بسكوت وسكون تام قال الخادم ويلاه يا مولاي قد ضحيت نفسك ومصلحة حياتك بدون نتيجة ولو تركت والدك يعرف من انت ويتحقق عدم رجوع اوغست لكنت نلت انت الوصية وقدرت ان تنتفع وتنفع بها اما الآن فقد قضي الامر واذ لا امل في ارتداد اخيك عن طرقهِ فلسوف يبدد هذه الثروة في ايامٍ قليلة ويهدم مستقبل حياتهِ وحياتك ويمحق المجد الذي قضى والدك حياتهُ في تأسيسهِ

فقال البر اسكت يا هذا فان الله لا يعدمني وسيلة اعيش بها . اما تضحية نفسي لخير اخي فلا يوجد سواها واسطة لتخليصهِ من عذاب السجن وانتقام الحكومة . اجل انني احزن على هذه الثروة التي سيبددها بجهلهِ اذ لا امل في اصلاحهِ ولكن سروري يكون اعظم من مسآءتي حيثما اتمثل انني خلصتهُ من العار والضيق . فهلمَّ الآن نبعث اليهِ بهذا الكتاب الذي لا يُعلم مضمونهُ وتعرف الحكومة ان اخي قد صار دوقًا حتى تطلقهُ من سجنهِ باكرام واعتبار وتعيدهُ الى املاك ابيهِ . ولما قال هذا نظر الى الظرف الذي كان بيدهِ ثم صاح صيحة الدهش وقال ماذا ارى ان هذا الظرف معنون باسمي فما المعنى يا ترى وللحال فض ختمهُ وتقدم الخادم ليرى فوجدا ان الوصية باسم البر وكان الدوق قد رمى الى النار الوصية المكتوبة باسم اوغست وهو يظنها وصية البر . فقال البر وا اسفاه قد غلط والدي في اتمام قصدهِ

فكيف العمل . فقال الخادم ضاحكاً مسرورًا بل هكذا شآء الله ان ينال صاحب الحق حقهُ لحفظ اسم ابيك ومجدهِ العظيم فلا تجحد نعمة الله واقبلها بشكر وتصرف بحزم كما يليق برجلٍ عاقلٍ نظيرك

ثم انحنى البر فوق النار علهُ يرى شيئًا باقيًا من وصية ابيهِ لاخيهِ ولكنهُ لم يجد فيها سوى رماد الورق الذي جعلتهُ النار هباءً فأنّ انين اليأس وقال هي مشيئة الله فمن يعارضها

وشاع خبر وفاة الدوق فاقيمت لهُ حفلةٌ ومأتمٌ عظيم الابهة ودُفن في مدافن العظمآء واعترفت الحكومة بالدوق البر وارث ابيهِ . وكان اول ما سعى فيهِ البر انقاذ اخيهِ من الورطة التي سقط فيها فلم يذخر وسعاً ولا سعياً في الاسترحام والتوسل و بذل الاموال حتى تمكن اخيرًا من الحصول على امر العفو موقعاً عليه بامضاء الملك وما صدّق ان حصل عليهِ حتى امتطى جوادهُ وسار ينهب الارض قاصدًا الباستيل وهو السجن المشهور لذلك العهد . ولما بلغهُ قابل حاكمهُ واطلعهُ على امر الملك فاخذهُ الحاكم وسارا يصحبهما سجان وحداد لقطع قيود اوغست وكانا يطوفان في دهاليز الباستيل وسراديبهِ ولا يصدق البر ان يصل الى اخيهِ ليبشرهُ بالعفو ويرجعهُ اليهِ . فلما بلغوا الغرفة وفتحها السجان وانار مصباحاً دخلوا ولكن الدهر قضى ان لا ينال البر بغيتهُ في خلاص اخيهِ فوجدوا اوغست ممدّدًا في ارض الغرفة جثةً هامدة ممزق العنق سابحًا في بحرٍ من الدم . فانهُ كان قد يئس من الحياة وعلم ان من يدخل الباستيل لا يعود منهُ حيًّا فتمكن من اخفآء صحن الطعام حتى اذا خلا بنفسهِ كسر الصحن وجعل يمرّهُ على عنقهِ ففتح شراينهُ ونزف دمهُ حتى مات . ولم يكن البر ينتظر هذه النتيجة المحزنة فاغمي عليهِ لشدة التأثر ولما ملك روعهُ وافاق استصحب جثة اخيهِ فدفنها بجانب والدهِ ثم عاد الى املاكهِ يصرف بقية الحياة مترحمًا على المائتين ويراجع الدرس الذي كلفهُ حفظهُ موت والدهِ واخيهِ